لبنان: عودة بالذاكرة إلى "حادثة الحافلة" التي أطلقت شرارة 15 عاما من الحرب

الشرق الأوسط

ماذا حدث يوم الأحد 13 نيسان/أبريل 1975 في عين الرمانة، في الضاحية المسيحية لبيروت؟ أجرى صحافي فرنسي لبناني تحقيقا يستحضر الساعات التي سبقت الهجوم على حافلة كانت تقلّ فلسطينيين، ما أطلق شرارة حرب لبنان.

نشرت في: 2025\04\14 - 13:47
إعداد: آن إسينكاس

في الوسط، حافلة عين الرمانة بعد الهجوم الذي وقع في 13 أبريل 1975 © .فرانس24

في 13 نيسان/أبريل 1975، أي منذ خمسين عاما، تم استهداف حافلة تقل فلسطينيين في منطقة عين الرمانة المسيحية في بيروت .أسفر الهجوم عن مقتل 27 شخصا، وربما 31 شخصا. أو حتى 22. لا أحد يعرف بالضبط عدد الضحايا.. لا أحد يعرف بالضبط ما حدث ذلك اليوم. فالروايات تختلف، لكن المؤكد أنّ الحافلة تعرضت لهجوم.

بالنسبة إلى الفلسطينيين والقوى التقدمية اليسارية المؤيدة لهم في المعركة ضد إسرائيل، فإن الحافلة، التي كانت تقل مدنيين، قد تعرّضت لكمين نصبته الكتائب اللبنانية، الحزب اليميني المسيحي، ما تسبب في مقتل نساء وأطفال، بحسب ما ورد آنذاك.

في المقابل، يعتبر حزب الكتائب أن الهجوم على الحافلة كان أوّل عمل مقاومة ضد الفلسطينيين المسلحين، رداً على محاولة الاغتيال التي تعرض لها رئيس الحزب بيار الجميل قبل ساعات قليلة من الهجوم وفي الشارع نفسه الذي استهدفت فيه الحافلة.

صورة ملتقطة في 13 نيسان/أبريل 1975، للحافلة في عين الرمانة، الضاحية المسيحية لبيروت، بعد استهدافها من قبل ميليشيا حزب الكتائب © .وكالة فرانس برس

على مدى عشر سنوات تقريبا، قاد الصحافي الفرنسي اللبناني مروان شاهين تحقيقا في الحادثة، بحثا، ليس فقط عن الحافلة، بل عن شهود عيان ورجال شرطة وناجين ومهاجمين. فأعاد بناء الحقائق بالتفاصيل وبعيدا عن الأساطير.

اكتشف على سبيل المثال أنه لم تقتل أي امرأة في الهجوم على الحافلة، التي كانت تقلّ رجالا فقط، معظمهم مسلحون، وهم عائدون من عرض عسكري .وأفاد التحقيق أنّ نصف الركاب فقط كانوا من الفلسطينيين. إذ لاقى عشرة لبنانيين حتفهم في الهجوم، ما يدحض مزاعم الكتائب حول حرب ضد عدو أجنبي.

مروان شاهين خلال مقابلته مع فرانس 24 © .آن إلسينكاس

في كتابه المؤلف من أكثر من 500 صفحة) "Beyrouth, avril 1975, Autopsie d’une etincelle"الذي فاز بجائزة France-Liban الأدبية لسنة 2024(، يستعرض مروان شاهين بدقة كيف "تحولت حادثة غامضة، تعكس مزيجا من الالتباس والشائعات والفوضى والخوف، إلى حدث تاريخي وحتى إلى أسطورة".

وكان الهجوم على الحافلة أو "البوسطة"، كما يسميها اللبنانيون، بمثابة البداية الرسمية للحرب الأهلية اللبنانية، التي خلفت أكثر من 150 ألف قتيل خلال 15 عاماً.

فرانس 24: في كتابك، قلت: "بين الذاكرة والتاريخ، تعتبر قصة الحافلة نوعاً من الهلوسة الجماعية. فما الذي حدث بالضبط في 13 نيسان/أبريل 1975 عند الساعة الواحدة ظهرا؟"

مروان شاهين: كان يوم أحد. تعرضت حافلة تقل فلسطينيين ولبنانيين لهجوم في منطقة عين الرمانة قرب بيروت .كان معظم الركاب، العائدين من عرض عسكري يحيي ذكرى هجوم وقع قبل عام في إسرائيل، ينتمون إلى جبهة التحرير العربية، وهو حزب فلسطيني تابع لحزب البعث العراقي.
هوية المسؤولين عن الحادثة لا تزال مجهولة، إذ لم يتمّ العثور على أي منهم. لكن يبين التحقيق الذي أجريته، أنّ الهجوم نفّذ على يد عناصر من ميليشيا الكتائب وسكان عين الرمانة. وأسفر عن مقتل 22 شخصا.

عندما بدأت تحقيقاتي، كانت ظروف الحادثة غامضة والروايات متضاربة.

كتبت: "لقد تمّ تحوير قصة الحافلة إلى درجة لم يعد أحد يعرف شيئا عنها أو حتى كيف علم بها".

المضحك والمقلق في آن هو أنّ معظم الكتاب اللبنانيين، ومنهم أمين معلوف ووجدي معوض، يقولون إنهم رأوا الحادثة بأم أعينهم. فلم نعد نعرف ما إذا كنا قد عشنا الحادثة فعلا أم أنها مجرد هلوسة جماعية.
إعلان فيلمIncendies ، مقتبس من مسرحية وجدي معوض.

يحلل مروان شاهين أنّ الحافلة، أو البوسطة، هي صورة رمزية في مسرحية وجدي معوض، حيث تظهر بشكل متكرر.

بما أنه لم يتمّ توثيق الحادثة، فإنّ الصورة الراسخة في أذهاننا، هي نتيجة روايات حُكيت في أماكن خاصة، والخيال الذي اتخذ حيزا واسعا منها.

إن المشهد الأكثر شيوعا في الأذهان هو بلا شك اقتباس من فيلم" بيروت الغربية" للمخرج اللبناني زياد دويري. بحسب القصة (الخيالية)، وقعت الحادثة خلال أيام الأسبوع وكانت الضحية الأولى امرأة قتلت عند باب الحافلة في ذاك اليوم، على الرغم من أنه لم يكن في داخلها سوى رجال.

رسّخ الخيال، وكذلك الروايات العائلية، هذه النسخة "المشوهة" والمتكرّرة للحادثة. ويعتقد كثيرون أنّ هذا فعلا ما حصل.

وهكذا بدأت في البحث عن تلك الحافلة "الشهيرة..."

بدأت التحقيق بعد أربعين عاما من وقوع الحادثة، كانت حينها الحافلة موجودة في حديقة خاصة في بلدة شوكين، في جنوب لبنان .وكان صاحبها يريد بيعها مقابل مليون دولار، بعد أن استعادها في نهاية الحرب. (لا تزال الحافلة ملكا له اليوم). وأصبحت الحافلة نوعا ما مصدر رزق له مع فرضه رسوما على الزائرين. كان يأمل أن تأتي له بثروة.

استوقفتني فكرة أن الحافلة تعود لفرد، لأنني كنت أعتقد، من وجهة نظر فرنسية، أن مكانها في متحف، كونها تجسّد الذاكرة الجماعية.

عرضت حافلة عين الرمانة لأول مرة في غابة الصنوبر، في بيروت، في 12 أبريل/نيسان في غابة الصنوبر 2007 © .جوزيف براك، وكالة الصحافة الفرنسية

اليوم، وبعد مرور عشر سنوات، لا تزال الحافلة مركونة في تلك الحديقة، تغطيها الأعشاب البرية. ولا يزال صاحبها يأمل في بيعها. خفت خلال الأشهر القليلة الماضية من أن تكون "البوسطة" قد دمرت خلال القصف الإسرائيلي الأخير. لكن يبدو أن ذلك لم حصل.

شطب التاريخ كلّ الناجين من الحادثة دفعة واحدة. لكنك وجدت بعضهم.

بحسب التاريخ، الناجي الوحيد هو سائق الحافلة، وهو لبناني يدعى مصطفى حسين. لكن في الواقع، كان هناك ما لا يقل عن 11 ناجيا. لقد عثرت على بعضهم. وفكرة محوهم من التاريخ تحمل بالنسبة إلي ما يكفي من الدلالات.

حين بدأت التحقيقات، كان هناك أربعة أو خمسة أشخاص لا يزالون على قيد الحياة. اليوم، على حد علمي، لم يبق سوى واحد. ومع تقاطع شهاداتهم، تمكنت من فهم ما حدث في ذلك اليوم.

لقد عثرت أيضا على" أبو"Z ، "القاتل، مطلق الرصاصة الأولى"...

في الواقع، لقد التقيت بعدة أشخاص زعموا أنهم من أطلق الرصاصة الأولى. وهذا يبرهن أيضا أن الحرب هي بالنسبة إلى البعض ذكرى مجيدة بعيدة تماما عن الإجرام.

في غياب العدالة، انتهت الحرب فاحتفظت كلّ الأطراف بذكرياتها. لذلك في عين الرمانة، نجد الكثير ممن يفتخرون بمشاركتهم في الحرب، ويتباهون بإطلاقهم النار على الحافلة، ومن بينهم شخص التقيت به واخترت أن أطلق عليه اسم**" أبو."Z**

وبحسب أقواله وعدد من الشهادات المتطابقة، يبدو أنه أطلق النار بالفعل على الحافلة وصعد إلى داخلها لتصفية الركاب المصابين.

كان فخوراً جداً بما فعله. وأزعجني ذلك بعض الشيء. اعتبر **" أبو "Z** هذا الهجوم، مثل غيره من سكان المناطق المسيحية، بمثابة اليوم الأول للمقاومة اللبنانية. وكان الشيء الوحيد الذي يندم عليه هو عدم الاعتراف بأنه منفذ الهجوم.

لماذا تم اختيار هذا التاريخ، هذا الحدث بالتحديد، كرمز لبداية حرب لبنان؟

كان خيارا تلقائيا إلى حد ما، يعكس عدم وجود إجماع حول الحرب الأهلية اللبنانية.

في غياب التوثيق التاريخي، الشيء الوحيد الذي يتفق عليه اللبنانيون إلى حد ما هو أن 13 نيسان/أبريل 1975 شكل منعطفا في تاريخ لبنان.

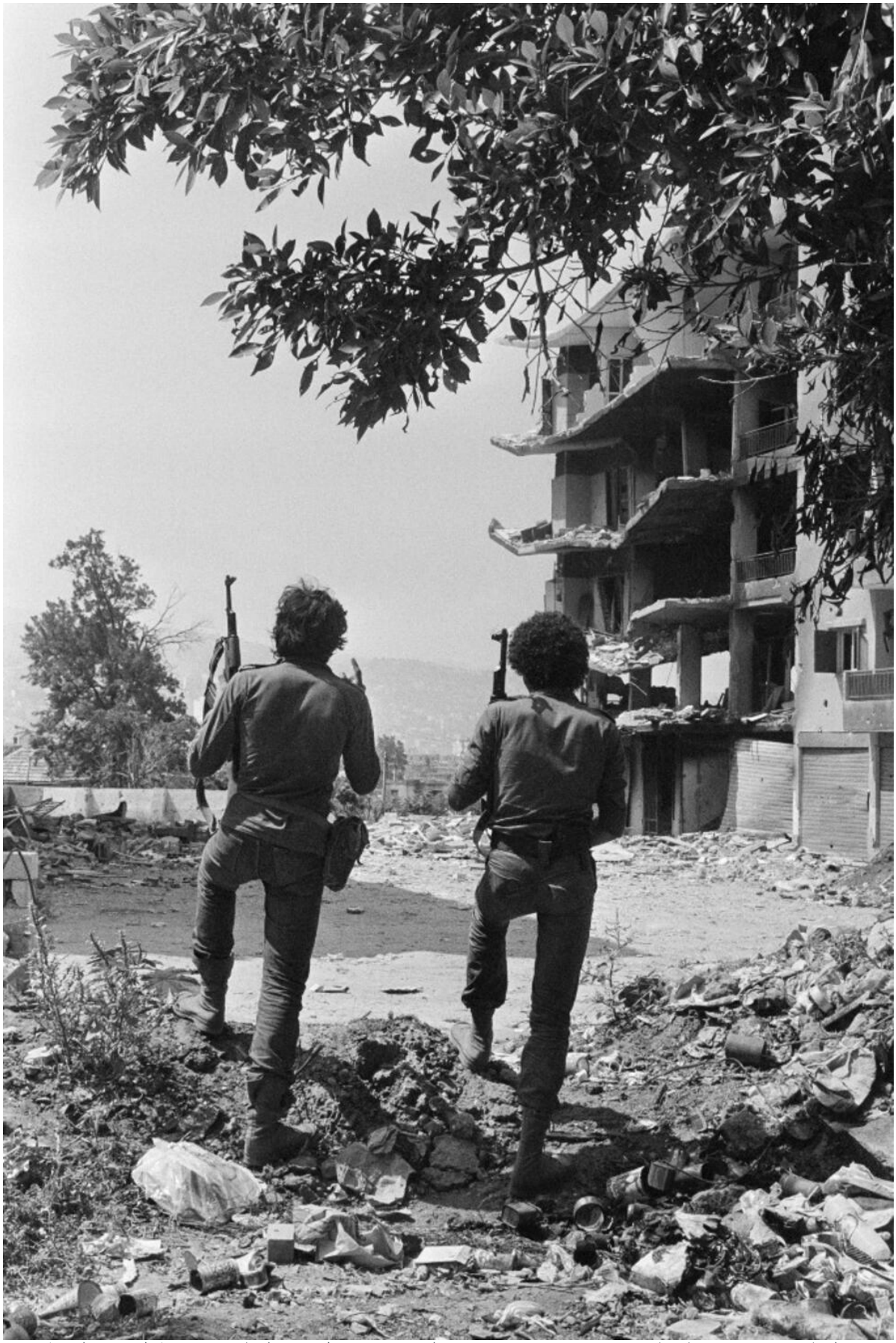

جنديان فلسطينيان يتحدثان وسط حطام مبنى تم قصفه في 21 تموز/يوليو 1982، داخل مخيم فلسطيني في مدينة الصنوبر الواقعة في غرب بيروت، خلال الحرب الأهلية اللبنانية © .دومينيك فاجيه، وكالة فرانس برس

فبعد تلك الحادثة، تم قتل أكثر من 300 شخص في غضون أسبوع واحد. إنها إذا نقطة تحول، نقطة "اللا عودة"، ما يعني أننا نستطيع أن نعتبرها البداية الفعلية للحرب الأهلية.

ومجرّد إحياء ذكرى بداية الحرب يظهر استحالة الاتفاق على تاريخ انتهائها.

لماذا لم يتم اختيار تاريخ توقيع اتفاق الطائف عام 1989 كرمز لنهاية الحرب؟

انتهت الحرب على أساس لا غالب ولا مغلوب. لم تبذل أي جهود على صعيد العدالة الانتقالية. واستند اتفاق السلام إلى قانون عفو أعاد أمراء الحرب إلى اللعبة السياسية. ففعل هؤلاء المستحيل لتعزيز فقدان الذاكرة المتعلقة بالحرب الأهلية. والمفارقة أنّ اتفاق السلام ترك لكلّ فرد روايته للأحداث. هكذا، في غياب الذاكرة الجماعية، نبقى مع ذكريات شخصية غالباً ما تكون عدائية فتعزز استدامة الحرب بطريقة أخرى.

في الواقع، لم تكن هناك نهاية للحرب. ولم نتمكن من اعتماد خطاب يتجاوز هذه الذكريات المتضاربة، ومجرّد وجود العديد من الروايات المتناقضة لأحداث 13 نيسان/أبريل خير دليل على ذلك.

كيف يتمّ إحياء ذكرى 13 نيسان/أبريل؟

تعكس نشاطات المجتمع المدني روح الوحدة الوطنية ونية تجاوز الأحداث، لكنها قليلة وفلكلورية بعض الشيء. فيقوم كلّ طرف بإحياء ذكرى شهدائه بشكل منفرد.

صورة لمؤيدي القوات اللبنانية، ميليشيا مسيحية لعبت دورًا رئيسيًا في الحرب الأهلية اللبنانية، وهم يركضون ويلوحون بالأعلام والأسلحة خلال احتفالهم بذكرى الحرب في بيروت في 13 نيسان/أبريل 2006 © .رمزي حيدر، وكالة فرانس برس

لا يزال حزب الكتائب يحيي ذكرى جوزيف بو عاصي، الحارس الشخصي لبيار الجميل، الذي قُتل صباح 13 نيسان/أبريل 1975. ويستمر بعض الفلسطينيين في إحياء ذكرى من قُتلوا في المخيمات.

في الواقع، لا تقام احتفالات وطنية. وهذا ما أثر بي أيضًا. لقد أجريت هذا التحقيق لفهم ما حدث في 13 نيسان/أبريل، ولفهم السبب وراء غياب ذاكرة جماعية في لبنان.

أخيرا، تطرح مسألة العدالة. ما جدوى الحقيقة من دون عدالة؟

تمكنت من توثيق هذا اليوم المشؤوم بشكل محدود. لكن الوقائع لا تستطيع إحداث فجوة في جدار الخيال. فالموضوع ليس مسألة حقيقة أم خيال بقدر ما هو مسألة تأثر داخلي عميق. فما جدوى الحقيقة من دون عدالة؟ الحقيقة مهمة، لكنّ منافعها محدودة في غياب العدالة.

ما زلت على اقتناع بضرورة توثيق الأحداث إذا أردنا يوما ما أن نكتب تاريخا مشتركا. وحتى لو كان الهدف مجرّد إثبات قدرتنا على كتابة تاريخ مشترك وأنّ الأحداث في لبنان لن تتحول حكما إلى أساطير وقصص خيال.

لقد خرج لبنان للتو من حرب دموية بامتياز وعيناه شاخصتان على الحاضر أكثر من الماضي. هذا أمر مفهوم للغاية. كل ما أتمناه هو أن يساهم هذا العمل، والذي كان أيضًا عملا ضد النسيان، في كتابة تاريخ مشترك في المستقبل القريب أو البعيد. ولكنني أعتقد أنه سيكون من الصعب الاتفاق على ماض مشترك في غياب رغبة قوية لدى اللبنانيين في بناء مستقبل مشترك.

ترجمة: شارلوت باسيل